

دمشق

في العصور الكنعانية

د. علي أبو عساف

إن الوثائق المختصة بدمشق، كلاً أو جزءاً، قليلة جداً • هي سطور في وثائق اقتصادية، أو رسائل تأتي على ذكر دمشق ومحيطها • وجمعها سطر فوق سطر، يظهر رواية غير محبوبكة، وجداراً مرماً فجواته واضحة للعيون • وإن كان يبدو للمختصين متكاملًا متراصًا وشامخًا •

هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فإن التنقيبات الأثرية لم تجر في دمشق، ولن تجر في المستقبل المنظور ولو جرت لعثرنا على وثائق أو بعضاً من وثائق عصورها وشواهد حضارتها على مرّ العصور القديمة •

لم تمح الحروب والكوارث، كل التي نقرأ فيها سطوراً، أو كلمات عن دمشق • كما أنها لم تُغيّب كل شواهد حضارتها • فلا تزال هناك أشياء تنطق بأنباء عن دمشق ومحيطها •

وطبيعيّ في هذا الصدد، أن نتعرف على موقع مدينة دمشق • فلو دققنا في المخطط الطبوغرافي لمدينة دمشق، الذي وضعه العالمان الألمانيان قال تزنكر وفول تزنكر، لوجدنا أن الأرض التي تقوم عليها دمشق القديمة ليست مستوية • فهي منخفضة • ومنبسطة عند ضفة بردى الجنوبية، ومرتفعة إلى الجنوب من المسجد الأموي، على جوانب الشارع المستقيم •

إن هذا الجزء المرتفع في الجنوب، هو الذي يهمنّا، وهو لا يشكل كتلة واحدة، ذات ارتفاع واحد، بل يشكل عدة تلال •

في الشرق ، الى الشمال من الكنيسة المريمية ، تلة الدوامنة • والى الغرب منها ، وبالقرب من المسجد الأموي ، تبدو تلة أخرى في حي العمارة الجوانية تدعى تلة السمّاكة • أما الى الجنوب من المسجد الأموي ، فيمتد تل كبير بين السور في الجنوب ، والصاغة القديمة في الشمال ، وبين الكنيسة المريمية في الشرق ، وباب الجابية في الغرب • وهو الذي يخترقه الشارع المستقيم من الغرب الى الشرق • في هذا التل قمتان : شمالية صغيرة تقع قبالة الزاوية الجنوبية الشرقية للمسجد الأموي ، وتبعد عنها حوالي ٢٠٠ م • وجنوبية أكبر تبعد عن المسجد الأموي حوالي ٣٠٠ م ، ويمر بينهما الآن الشارع المستقيم • ويُخيل الي ، أن الشارع قد سُد في هذا المكان ، لأن فجوة كانت بين التلين ، استغلت لممر الشارع •

هذا وصف موجز لشكل الأرض التي تقوم عليها دمشق القديمة • فماذا نستنتج منه ؟ وما هي فائدته ؟ •

ان هذه التلال ، طبقات المدينة القديمة ، وأنقاض مبانيها ويرجح عدد من الباحثين ، أمثال قال تزنكر وفولتز نكر ، أن هذه التلال تمثل المسرح أو الأوديون الروماني • بينما يفترض الباحث الفرنسي سوفاجيه ، أن قصر الامبراطور أنتيوخوس التاسع سيزينوس كان في هذا المكان عندما حكم دمشق ، قبيل نهاية القرن الثاني ق • م وقد توصل الى هذا الافتراض ، من كون الموقع كان يسمى في العصور الوسطى البرص أي القصر ، الحصن • علماً بأنه لا يوجد حصن • وقد ذهب الى أبعد من ذلك ، اذا افترض ، أن قصر انتيوخوس ، قد شُيد على أنقاض قصر (الستراب) • وهذا بدوره كان قد احتل المكان ، الذي كان يقوم عليه القصر الملكي الآرامي •

هذا هو رأي سوفاجيه • ولو أمكن التنقيب في هذه الأماكن ، لأَيّدناه أو رفضناه • ولكن ثمة أشياء أخرى ، يمكن أن يُقال في هذا المجال ، تأييداً لرأيه •

في الواقع ، أن هذا التل ، هو الوحيد في البقعة التي تقوم عليها مدينة دمشق القديمة • وهو مجاور لمسجد بني أمية ، الذي كان معبداً للرب هدد في العصر الآرامي وتأسيساً على ما نعرفه من أساليب تنظيم المدن الآرامية (جوزن - خداتو - شمال) ، يكون المعبد والقصر متجاورين •

وهذا ينطبق أيضاً ، على كثير من المدن الكنعانية (الألاخ - إيمار - إيبلا) . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، قامت وزارة الأوقاف ، بإعادة تبليط صحن المسجد الأموي عام ١٩٦٦ ، فاجتذمت المديرية العامة للأثار والمتاحف هذه الفرصة الذهبية ، وأجرت سبراً في الصحن ، لم تكمله ، ولم تستمر به الا لوقت قصير ، فضاعت الفرصة ، ولكننا مع ذلك ، حصلنا على بعض الكسر الفخارية ، التي تعود الى عصر الممالك الكنعانية الأمورية الأولى ، أي مطلع الألف الثاني ق.م . وهذا دليل قوي ، على أن دمشق ، كانت مأهولة في هذه الفترة .

ثمة أمر آخر نأتي على ذكره هنا ، وهو الوثائق المتعلقة بمحيط دمشق . يتفق الباحثون على أن دمشق كانت في منطقة تدعى (أ'فّا / أ'فّي) . وقد ذكرت لأول مرة في نصوص الاحتقار المصرية ، التي سطرت في عصر المملكة الوسطى ٢٠٥٢ - ١٧٧٨ ق.م . والواقع أن هذه النصوص شحيحة ، لا تحوي سوى أسماء أمراء ، مضافاً إليها أحياناً اسم المكان أو بالعكس . وفي هذا العصر ، وعلى وجه الدقة ، في عهد السلالة الثالثة عشرة ، التي حكمت في النصف الأول من القرن الثامن عشر ق.م . ١٧٨٦ - ١٧٧٨ ق.م .

كانت أ'فّا مقسمة جغرافياً الى منطقتين شمالية وجنوبية . وقد جاء في الوثائق اياها : ح ق (١) ن - افوم - رست . . . = أمير أفوم الجنوبية . . . ح ق (١) ن - افوم - م ح تي - ع خ وك ب كب = أمير أفول الشمالية أخو كوكب .

ويجب ألا يدهشنا هذا الشيء ، لأن القبائل الكنعانية ، كانت قد توزعت على مناطق بلاد الشام ، وأسست ممالك عديدة كبيرة وصغيرة . كانت في منطقة أ'فّا / أ'فّي وحدها مملكتان .

وبوسعنا على ضوء ما تقدم ، أن نعد هاتين المملكتين ، من الممالك القوية ، والا لما ذكرتا في نصوص الاحتقار ، كعدوتين لفرعون مصر . ولو أن النصوص الفرعونية ، كانت أوسع وأشمل ، وفيها ما يشير من قريب ، أو بعيد ، الى الموقع الجغرافي للأفنتين ، لأغنانا ذلك عن التخمين . ولحل هذا اللغز ، جرى تحديد حدود أ'فّا / أ'فّي بالاعتماد على مصادر كثيرة منها رسائل العمارنة ، وبعض الوثائق الحثية والأمر الواضح ، أن كوميدو / كوميدي ، التي هي الآن كامد اللوز في البقاع الجنوبي ، كانت أ'فّا ، مثلما كانت دمشق .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، فقد انتشرت الممالك التي كانت معاصرة
لأفثا / أفثي ، ورد ذكرها في المصادر المصرية ، الى الجنوب من اليرموك : مثل
فحل ، التي هي الآن خربة فحيل ، وفي حوران ، مثل عشتروت ، وفي سهول
حمص مثل عشتروت ، وفي سهول حمص مثل قادش وقطنة .

ونحن نرجح ، أن أفثا كانت بين هذه الممالك ، وشملت البقاع ، وسلسلة
جبال لبنان الشرقية ، ودمشق ، وغوطتها ، مع مناطق النبك ويبرود ، وقد تتمثل
في أراضي محافظة ريف دمشق الآن ، مضافاً إليها البقاع الجنوبي ، وجبل
الشيخ .

وقد جاء تأكيد أهمية أفثا / أفثي ، ودورها القوي في بلاد الشام ، في الألف
الثاني ق م . من الوثائق الفرعونية والحثية .

ففي عصر العمارنة ، الذي يبدأ مع عهد الفرعون أمنوفس الثالث (١٤٠٣ -
١٣٦٤) ، وينتهي بانتهاء عهد أمنوفس الرابع / أخناتون ١٣٦٤ - ١٣٤٧ ،
تعزز النفوذ المصري في بلاد الشام الجنوبية ، وحدثت هزات وأحداث زعزعت
الأمن والنظام في بلاد الشام الجنوبية ، وانعكست آثارها على التوازن بين
الممالك الكنعانية .

وفي طليعة هذه الأحداث نضع ظهور ملك قوي ، يدعى يراوزا ، كان
قد دخل في خدمة الفراعنة ، وحينما قوي نفوذه ، وهو في دمشق ، سار بقواته منها
الى كوميدي ، فاحتلها ، وأعلن من هناك ، ولاءه للفرعون ، وذلك برسالة
وجهها الى أخناتون فرعون مصر . لقد كان الدافع وراء حركة يراوزا ، التصدي
للجماعات التي كانت تنادي بالتخلص من النفوذ الفرعوني ، والتحالف مع
الحثيين والميتانيين لتحقيق هذه الغاية .

ان انحياز يراوزا الى الفراعنة ، ضد الذين يرغبون بالانحياز الى
الميتانيين ، يضع الرأي القائل بأنه من أصل حوري / ميتاني في مدار الشك .
فلو كان حورياً لانحاز اليهم على الأرجح . نحن نعتقد أنه كنعاني واسمه مركب من
برايا أي المخلوق مضافاً اليه زا / زو أي العظمة والفخار .
نحن نعلم من رسائل العمارنة أن ممالك المدن الكنعانية من إربد في الجنوب
وحتى دير العدس وغباغب في الشمال . ومن حسيما / تخسي في الشمال وحتى

صيدنايا ومضايا في الجنوب قد سارت في ركابه . ولم يتصد له ويعاديه إلا مملكتنا
قادش وقطنة في الشمال .

هذا ما كان من أمر الوثائق المصرية، أما الوثائق الحثية التي تعود الى
منتصف القرن الثالث عشر ق.م. فهي تشير بوضوح الى قوة مملكة أفتا وسعة
رقعتها .

ففي عام ١٢٥٦ ق.م. تزوج رعمسيس الثاني بابنة الملك الحثي
خاتوشيلي الثالث . وقد سار موكب العروس ، من خاتوشا ، عاصمة الحثيين ،
حتى مدينة أيو ، والتي ينتهي عندها النفوذ الحثي . ومن أيو ، قاد موكب
العروس ، رجال أفتا وقادة جيشها حتى مصر . واذا علمنا ، أن أيو ، هي على
الأرجح ، تل أيو ، الذي يقع على بعد سبعة كيلو مترات جنوب حماة ، جاز لنا
القول ، أن نفوذ أفتا قد وصل اليها شمالا ، ووصل فلسطين جنوباً .

من كل ما تقدم ، نخلص الى نتيجة مفادها ، أن أفتا / أفتي كانت إحدى
الممالك الكنعانية القوية ، وقد لعبت دوراً بارزاً في أحداث البلاد ، قبيل ،
وبعد منتصف الألف الثاني ق.م. وقد امتدت رقعتها ، من حسيا والبريج في
الشمال ، الى حوران في الجنوب ، ومن البقاع والجولان في الغرب ، الى البادية
في الشرق .

وعلى هذا الأساس تكون دمشق في وسطها ، فمتى ظهر اسم دمشق ؟
وما معناه ؟! اهتم الباحثون بمعرفة معنى دمشق فتتبعوا مراحل كتابته في مختلف
الوثائق . ففي عهد الفرعون تحوتمس الثالث ١٤٩٠ - ١٤٣٦ كتب اسم دمشق
على الشكل التالي : ت م س ق وذلك على جدران معبد الكرنك ضمن أسماء المدن
التي غزاها هذا الفرعون في العام الثالث والثلاثين من حكمه . أما في عهد
الفرعونين أمنوفس الثالث ١٤٠٣ - ١٣٦٤ وأمنوفس الرابع (أخناتون)
١٣٦٤ - ١٣٤٧ فقد كُتب تَمِسَّقُ وتَمِشَّقُ ودمِشَّقُ .

وفي كتاب العهد القديم كتب الاسم بصيغ مختلفة فقد سجل مرة دمشق ومرة
أخرى سجل دُمِشَّقُ وثالثه دارمِشَّقُ . أما الآشوريون فقد دونوه في وثائقهم
بصيغة واحدة تقريباً هي دِمِشَّقُ وذلك عندما غزوا بلاد الشام في عهد ملوك
المملكة الحديثة من عام ٩١٢ - ٦١٢ ق.م. أما الآراميون الذين جعلوا من دمشق
أحدى أبهى المدن فقد كتبوه دمشق أيضاً .

مما سبق يمكننا أن نقول أن اسم دمشق قديم ، لم يطرأ عليه تبديل أو تحريف ، انما استبدل حرف الدال بالتاء أو حرف الشين بالسين عند الفراعنة لأن الكتاب سمعوه هكذا على الأرجح .

على أن الصيغة التي شغلت الباحثين هي دارمِسَق التي وردت في سفر الأخبار الثاني الاصحاح السادس عشر ، الآية الثانية . وفي الاصحاح الرابع والعشرين الآية الثالثة والعشرين . وفي الاصحاح الثامن والعشرين الآية الخامسة والآية الثالثة والعشرين .

لقد تعددت الآراء واختلفت التفسيرات لهذه الصيغة الملفتة للنظر والمغايرة لكل الصيغ الأخرى . وقد عمل عدد من الباحثين على تحليل هذه الصيغة فقالوا أن الاسم مركب من اسم المكان دار واسم العلم مش الذي هو اسم الرب مختزلاً وقد ألحق حرف القاف بدلاً من المقطع كي في آخر الاسم للإشارة إلى أن الاسم هو اسم مدينة وذلك حسب الأسلوب (الأكدي) .

هذا رأي وهنالك رأي آخر يرى أن مِسَق هو اسم مفعول من الفعل سقى ويصبح معنى دارمش / دمشق دار السقاية .

والى جانب هذين الرأيين اللذين انطلقا من تحليل كلمة دارمشق ، يوجد رأي ثالث يقول في كلمة دمشق أنها مركبة من اسم الإشارة ذو / ذي / ذات بالإضافة إلى مشق أي ذو مشق أو ذات مشق ومعناها ذو السقي أو ذات السقي . أما إذا كانت الميم مشددة كما هو الحال عليه في سفر أخبار الأيام الثاني ، الذي أشرت إليه أعلاه ، فيصبح معنى دمشق ذات التربة الغضارية .

ويتبين من هذا أن الآراء متضاربة حول معنى الاسم ، لكنها جميعها تنطلق من كون الاسم كنعاني وأنه وصف لبيئة دمشق ووظيفة المكان .

ومجمل القول أن الوثائق التي تشير إلى دمشق كمدينة أو كمملكة هي قليلة جداً في العصور الكنعانية . ومع ذلك ندرك منها أنها كانت مدينة عامرة كغيرها من مدن الممالك الكنعانية وما لم تجر فيها تنقيبات أثرية ، تبقى معلوماتنا عن حضارتها وعن أحوالها السياسية ناقصة . ويبقى دورها في صنع تاريخ بلاد الشام مجهولاً .

د. علي أبو عساف